هُوِيَّتُنا اللُّغَوِيّةُ بَين الواقِعِ والمأمُول

د. مصطفى أحمد محمد إسماعيل

الحمد لله الذي أنزل القرآن وحياً ناطقاً ببينات وحجج، قرآناً عربياً غير ذي عوج، فجعل لغة الضاد وسيلة للفهم والتفهيم، وأوجب بها رتبة البداية والتقديم، وصلى الله على أفصح العرب أجمعين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فإن اللغة العربية هي القلعة الحصينة للذود عن هويتنا وذاتيتنا الثقافية ووحدتنا المجتمعية، فهي مستودع تراث أمتنا وذاكرتها، وحصنها، ولقد قرر الدارسون أن هناك خمسةَ عناصر أساسية يمكن اتخاذها معيارًا لتصنيف البشرية إلى أمم، ولوَضع الفوارق بين هذه الأمم، وتعيين الخواص المميزة لكل منها؛ هذه العناصر هي: الجنس المشترك (أو الأصل)، والدين، والقومية، واللغة، والثقافة. وللغة والثقافة بوجه خاص دور بارز في هذا التصنيف والتحديد، إذ هما بمثابة المرآة العاكسة لكل أنواع النشاط الإنساني في هذه الأمة أو تلك وهذا المجتمع أو ذاك، وهما في الوقت نفسه بمثابة المرشد الذي يمكن أن يؤكد هذا التفريق أو ينفيه(١).

بل يقتصر بعض الباحثين على ثلاثة من العناصر الخمسة ، فيذكر أنه « يمكن التمييز بين ثلاثة عناصر مهمة يمكن اعتبارها مقومات أساسية في تحديد خصوصية الثقافة العربية وتمايزها عن غيرها من الثقافات كما تعتبر من أهم عوامل بقاء هذه الثقافة واستمرارها في الوجود، وهذه المقومات الثلاثة الرئيسة هي اللغة والدين والتراث، وإن كانت هناك بطبيعة الحال عناصر أخرى قد تكون أقلَّ وُضوحا وإن لم تكن أقلَّ فاعلية في تشكيل الثقافة العربية ورسْم معالمها وتحديد خصائصها المميزة (٢)»،كما ينبغي لأية دولة تصبح عضوا في الأمم المتحدة أن يكون لها أرض محددة (لها حدود جغرافية)، وعَلَم ، ولغة، وشعب، ومن دون هذه المسوغات الأربعة، فإنه لا يمكن قبول أية دولة في الأمم المتحدة، من هنا تأتي أهمية اللغة باعتبارها إحدى مكونات أية دولة في العالم، وبالتالي فإن التنازل عن لغة دولة للغة دولة أخرى، يعني أن هذه الدولة تتنازل عن جزء من سيادتها لتلك الدولة(٣).

وعلى هذا؛ فاللغة مُكَوِّنٌ رئيسٌ من هُوية أي مجتمع، وبقدر ما يفرِّط المجتمع بلغته يفرِّط في هُويته ويعرضها للمَسخ والتشويه، فـ«الأمة بدون لغة هي أمة بدون قلب(٤)»، ومن أهمل لغته فقد ذاته، وأضاع شخصيته وكيانه، وبحسب نظرة المجتمع للغته، وعلى قدر الاعتزاز والاستمتاع والعناية باستخدامها-كلاما وقراءة وكتابة- والإصرار على ممارسة الإبداع داخل حدودها، والحرص الشديد على عدم خلطها بغيرها من اللغات وعدم هَجرها أو تفضيل غيرها عليها، بقدر ما يعين ذلك على تعزيز مكانتها وحفظها وزيادة قدراتها الذاتية على مجابهة أسباب تقويضها وفناها، والحفاظ على اللغة يتطلب التزاما وشعورا بالمسؤولية المشتركة لصيانة اللغة والمحافظة عليها وإنمائها، مع وجوب وضوح الرؤية وتفعيل المهارات في وضع خطط عملية وتنفيذها بإحكام(٥).

و«الهُوية» في اصطلاح حضارتنا العربية الإسلامية مأخوذة من « هُوَ .. هُوَ»، بمعنى جوهر الشيء وحقيقته؛ وفي معاجم اللغة: «الهُوية حَقِيقَةُ الشَّيْءِ أَو الشَّخْصِ الَّتِي تُمَيِّزه عَن غَيره»(٦)، و «الهُوِيَّة: إحساسُ الفرد بنفسه وفرديّته وحفاظُه على تكامُله وقيمته وسلوكيَّاته وأفكاره في مختلف المواقف(٧)»، أو هي «الحقيقةُ المطلَقَة المشتملة على الحقائق؛ اشتمال النواة على الشجرة (٨)».

ومن الممكن أن يعبَّر عن الهُوية بالماهية، فهُوية أيّ شخص هي مجموع أمرين يُميّزانه عن غيره؛ هما: اسمه، وعُمقه معا؛ إذ «يوجد

مظهران أساسيان لهوية شخص ما؛ أولهما: اسمه الذي يميزه عن غيره من الناس، وثانيهما: ذاك الشيء غير الملموس والأكثر تعقيدا وعمقا الذي يشكل في الحقيقة ماهية المرء (٩)»، ويعدها أحد المحدثين(١٠)«مجموعة الصفات، أو السمات الثقافية العامة، التي تمثل الحد الأدنى المشترك، بين جميع الذين ينتمون إليها، وتجعلهم يُعرفون ويتميزون بصفاتهم تلك عن سواهم من أفراد الأمم الأخرى»(١١)، وحيثما امتدت العربية وثقافتها، غدَت هُويةً للذين اتخذوها لغة لهم، ومنحوها ولاءهم وانتماءهم.. بصرف النظر عن أصولهم الجنسية والقومية، وغني عن البيان أن هوية الدين ترتبط ارتباطا وثيقا باللغة العربية؛ لأنها لغة القرآن الكريم ولغة الحديث الشريف.

وإذا كانت « اللغة هي الهوية، هي الأصالة، وازدهار لغة ما دليل على تماسك أهلها ورفعة حضارتهم، كما أن ضعف لغة ما دليل على ضعف أهلها وتراجعهم، فاللغة، بأهلها قوة وضعفا، وغلبة اللغة بغلبة أهلها، ومنزلتها بين اللغات صورة لمنزلة دولتها بين الأمم(١٢)»، فهل هذا هو واقع لغتنا الآن؟

لعل أول ما نلاحظه في هذا الشأن هو أن بناءنا اللغوي والثقافي بناءٌ ينقصه التكامل والتجانس أو الانسجام بين وحداته، ففي هندسته نَشازٌ، وفي جوانبه ارتفاعاتٌ وانخفاضاتٌ، وفي مادته أمشاجٌ وأخلاطٌ من العناصر، فهُويتنا اللغوية والثقافية هُوية مهزوزة، يشوبها نوعٌ من التفكك والاضطراب، وضربٌ من التنافر والتناقض، ومن ثم يسُوغ لنا أن نقرر أن ليست لنا هوية لغوية وثقافية موحدة! فاللغة العربية ـ وأعني بها اللغة المنطوقة ـ تعاني من بلبلة الألسن، وتعدد اللهجات والرطانات التي تحسب بالعشرات ، بل بالمئات...اللغة العربية الآن فاقدة الهوية فاقدة العروبة، إنها أمشاج وأخلاط من الكلام، فصيحة نادرة الاستخدام ومملؤة باللحن والخطأ، وفي المدارس والمعاهد العامة تقدم بطريقة هوجاء، غير منضبطة المعالم، وتقدم موادها أحيانا باللغة العامية بل إن النحو نفسه يقدم بهذه الطريقة! أما في الجامعات فإن أصحاب الاختصاص فيها -إلا من رحم الله- لا يلقون لها بالا، ولا يهتمون بها ولا بدروسها الاهتمام المناسب، حتى إنّ مؤلفاتِهم وآثارَهم المكتوبةَ محشُوّةٌ بالخطأ والتجاوُز(١٣).

باتت السيادة اللغوية للهجات العامية في كل مجتمعاتنا العربية، وأصبحت لها السيطرة على مجالسنا، ومناقشاتنا، وأسواقنا ومصانعنا ومؤسساتنا، حتى تسربت إلى مدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا، ووسائل إعلامنا المقروءة والمسموعة والمرئية، فقلَّ أن تجد متحدثا باللغة العربية الفصحى، وإن وجد المتحدّث بها فلا تخلو من أخطاء مشينة تثير الأسى والحسرة وتنذر بالخطر الذي يهدد لغة القرآن، ولقد تعددت مظاهر الضعف اللغوي ومنها بإيجاز ما يلي:-

١ ـ انتشار الألفاظ العامية انتشارا مخيفا في كل مناحي حياتنا اليومية حتى اقتحمت علينا مؤسساتنا التعليمية التي من المفروض أن تنطلق منها الدعوة قولا وعملا لحماية اللغة العربية والمحافظة عليها.

٢ ـ كثرة الأخطاء النحوية التي تصُكُّ الآذان وتُدمي الأفئدة في أحاديث المتكلمين بالفصحى، وكثرة الأخطاء الإملائية في المكتوب.

٣ ـ شيوع نطق الكلمات على غير وجهها السليم، و الخلط بين المفرد والمثنى والجمع، واستخدام حروف الجر في غير ما وضعت له.

٤ ـ كثرة الألفاظ الأعجمية.. وهجر الكثيرين لما هو عربي، وتفضيل البديل الأجنبي، وكأن هذا من مظاهر الحضارة والمدنية، فمثلا يكثر استخدام تعبير(سوبر ماركت) بدلا من مركز تِجاري، أو لفظة (ليسانس)،(بكالوريوس) بدلا من الإجازة العالية، و(ماجستير) بدلا من التخصص، و(دكتوراه) بدلا من العالمية ....

٥. ترداد الزعم أن العربية لا تواكب العصر، ولا تصلح لاستيعاب النهضة العلمية، وأنها عاجزة عن نقل العلوم التي تصوغ المستقبل، وأن مرض الأمة مرده في التمسك بالفصحى !.

الوضع العام للغة العربية، أن العرب أنفسهم الآن لا يتحدثون لغتهم العربية، ما أعنيه هو غياب اللغة عن الساحة العامة، وإذا كان حال اللغة هكذا، فهل من سبيل لعلاج هذا الضعف وهذا الغياب؟ أقول: في عصورنا